باب التربية والتعليم

(*) النبذة الخامسة من جريدة اراسم

الخط الديوانى

انشأ «أميل» يخط بالقلم خطاً مناسباً لحاله ولكنى فى شك من جريه على قواعد الخط فى شئ مما يكتب

كان الخط فيما مضى كأنه من صفات الكاتب الذاتية وكان يدل على حالة من أحواله سواء فيه الحسن والقبيح ولذلك وجد متوسمون يعتقدون انهم يقرأون فى خط من لا يعرفونه من الناس ضروب استعداده النفسى ولا بدع فى هذا فان كل أعمال الانسان منبعثة عن أخلاقه وسجاياه فلا شئ من الاستحالة ولا من البعد عن الحقيقة على ما أرى فى أن يكون الخط وهو الأثر الدقيق المثبت لصنوف الوجدان وأنواع المعانى على الورق سمة من سمات النفس وأمارة من أمارات الطبع . يشهد لذلك ان من الذين خطوطهم بين أيدينا قد غيروا فى حياتهم طريقتهم فى صوغ حروفهم عدة مرات فلا يمكن أن يكون هذا التغيير الذى يحق لنا المراهنة على حصوله بغير شعور منهم أجنبياً عن بعض استحالات حصلت فى عقولهم . ومن الأمور التى اعتقد الباحثون فى هذه المسألة انهم تنبهوا إليها ولاحظوها ان أقرب أطوار الكاتب إلى الفطرة هو ذلك الطور الذى يكون فيه خطه موسوما بأقرب السمات إليها أيضاً

اخترع الناس فى هذه الأيام للخط طرقاً لاشك ان لها مزية فى تهذيبه وتقويم يد الكاتب ولكنها متى انتشرت وعم استعمالها اتحدت الخطوط وتشابهت فلم يبق بينها فروق تميز بعضها من بعض فنحن فى هذا القرن قرن السكك الحديدية والأقلام الحديدية نسارع كلنا إلى تحقيق الوحدة فى كل شئ

لو ان هذا الميل إلى الصناعة اقتصر على أمارات الفكر وقوالب المعانى لكان الخطب هيناً ولكنه لم يقف عندها بل تعداها إلى الفكر نفسه

أنا على يقين من وفرة علومنا ومعارفنا فليست هى التى تعوزنا إذ قد وجدت

(*) معرب من باب تربية اليافع من كتاب أميل القرن التاسع عشر

طرق سهلة صيرت مبادىء العلم وآداب اللغة والفنون الجميلة قريبة التناول لجميع الناس وكل يوم يزيد تمتع الناس بانتشار أنوار العرفان بيننا وهو أمر أنا بعيد عن المنازعة في جلالة خطره وعظم شأنه ولكني لا أرى على حرجاً ان سألت نفسي هذه الاسئلة وهي : هل ارتفع عقل الإنسان في هذا القرن إلى مدارك اسمى مما بلغه في القرن الثامن عشر ؟ هل حصل له من قوة النفس والانبعاث الذاتي إلى العمل والأخلاق الممتازة التي تتجلى في صورة مجتمعة الفطنة والأعمال البديعة أكثر مما كان له في ذلك القرن ؟ هل ارتفعت قوة الإدراك مع انتشار تساوي الناس فيها كل يوم ؟

وأني إذا التفت حولي فيعرض في الذهول ويتملكني الدهش لما أراه من غلبة الاوساط في العقل وكثرتهم وأسمع الناس يرددون القول بأن العقل والاستعداد قد شاعا في هذه الأيام حتى محا السابقة والنبوغ ولو أنهم قالوا ان كل واحد أصبح فيه عقل غيره واستعداده لكان هذا القول أصح وأقرب إلى الصواب . نعم ان قرننا قد وصل إلى طريقة بديعة في الاكثار من الدواليب والآلات الحاكية للفكر وقامت المهارة في الفنون مقام الاستعداد الفطري والعزمة وأزهق التكلف في آداب اللغة روح الإلهام والاصالة واستولت الدسيسة والخداع في مجرى الحياة وشئونها الفضلى والجبارة على عرشيهما ومحلّ محلهما فنرانا الآن منحدرين على طريق مستقيم عام إلى محو شروط القوة والرجحان في العقل والخلق محواً تاماً فعلينا أيها الانسان من الآن أن نقنع بأن نكون كجميع الناس .

ولا شك ان هذه الحال التي عليها العقول الآن ترجع إلى أسباب كثيرة ليس من غرضي استقصاؤها هنا منها نظام معيشتنا وفقدان الحرية السياسية عندنا واهتمامنا المتزايد بالمسائل المادية ومنها أمر لا يسعني اغفاله والا استحققت اللوم وهو ان التربية الحالية التي هي عليها اليوم أقرب إلى ستر عيوب الأطفال واخفاء مواضع الضعف فيهم بمعنى طرق التعليم السريعة التي تساعد تكون آلة محضة . أقول انها أقرب إلى ذلك منها إلى قصد اكتشاف ملكاتهم ومواهبهم المكتسبة وتنميتها فترى القائمين على التعليم موجهين نحو تعليمهم ان الغرض من اجتهادهم وكدحهم في التعلم انما هو نيل الفخر بأن يأتوا أعمالا تعين على الارتقاء إلى المناصب ونيل الغنى ويمتحنون منهم أن يبلغوا أربها وهم بذلك يكرون عمل الاحداث على أن يتبينوا ان المواضعة والصنعة هما أقرب طرق النجاح وأحسن وسائل الفلاح . اهـ

الشذرة السادسة

﴿ مذهب تشغيل المتعلمين بالأعمال المادية الشاقة ﴾

توجد فى بعض المدارس بانكلترا عادة قديمة يدهش منها الأجانب كثيراً ذلك أن التلامذة — فيما يوجد منها بمدينتى راتون وهارو وهى التى يدخلها أبناء السراة غالباً — يخدم بعضهم بعضاً وليس أمر الخادمية والمخدومية فيها متعلقاً بمكانة التلميذ فى قومه ولا بغنى أهله أو فقرهم بل بالأقدمية وبعض الدرجات المدرسية فيجوز أن يلزم الطفل الغنى السرى بتنفيض ثياب الطفل الفقير الوضيع وتأدية مطالبه وتنظيف غرفته وإيقاد ناره وتسوية طعامه وحمل كتبه إليه فى قاعة الدرس فيقع الإلزام بالخدمة على من تجعلهم المدرسة فى الدرجات الدنيا من أقسامها .

والذى استهجنه من هذه العادة هو مايكون بين التلميذين الخادم والمخدوم من رابطة التابعية الذاتية فان الأقدمين من التلامذة يسيرون أحياناً مع من يعتبرونهم خدماً لهم من إخوانهم سيرة فى غاية القسوة حتى إنه ليقع منهم فى حقهم ما نقرأه فى قصص موليير (١) المضحكة من الشتائم وضربات الأكف وجميع ضروب سوء المعاملة التى كانت تقع من صغار الموالى على خدمهم بأرجلهم وأيديهم الخفيفة الحركة ، أولئك الخدم الصغار الذين كانوا بالأمس أرقاء صبراً على الذل مستسلمين للجور يصيرون فى الغد سادة قساة متجبرين وهكذا شأن الدنيا وبمثل هذا تنتقل جميع أنواع العتو والطغيان من سلف إلى خلف .

لا أرى فيما عدا هذا العيب شيئاً فى هذه الطريقة فانه لاضرر مطلقاً فى أن يقوم بخدمة المدرسة التلامذة أنفسهم . ولقد عرفت فيما مضى مدرسة كان يديرها رجل وافر العقل عالى الفكر اختار هذا المذهب وتيسر له أن يجنى منه فوائد كبرى فى تربية الناشئين ذلك أنه عهد بمعظم أعمال مدرسته إلى جماعات من الغلمان واليافعين منقسمين إلى طوائف على حسب مقتضيات أذواقهم وضروب ميلهم الفطرى لأنهم كانوا فى هذه الأعمال مختارين متطوعين فكان الواحد منهم إما لباداً أو كناساً أو وقاداً للمصابيح أو موقظاً لاخوانه فى الصباح أو منظماً لقاعة الدرس وكانوا يتناوبون خدمة

---

(١) موليير هو أكبر واحد شاعر قصصى فرنساوى ولد فى باريس سنة ١٦٢٢ ومات فى سنة ١٦٧٣ مسيحية

المائدة وكانت الأعمال المحقرة التى تقتضى أكثر من غيرها إخلاصاً أجل من غيرها أيضاً فى نظر التلامذة لأن رئيس المدرسة كان يتظاهر بتمييزها عن غيرها بما كان يوزعه من شارات الشرف على من كان يدعوهم إقدامهم إلى مباشرتها . ولذلك كنت فى هذا المكان حتى كنت تشاهد مقدار التحمس الفرح الذى يبديه كل تلميذ فى القيام بعمله الذى كأنه فرض اختيارى أوجبه على نفسه . كان من مزايا هذه الخدمة البيتية للتلامذة أنها كانت تسلية لهم من عناء الدروس لأنه كان من رأى رئيسهم أن فى المراوحة بين الأعمال استراحة من مشقتها وكان من غرضه فوق ذلك أن يلقى فى نفوسهم معنى احترام جميع الوظائف وكل فروع العمل اليدوى فان الانسان لا يحتقر من غيره ما يباشره هو بنفسه .

إنى لتعرض لى فى بعض الأحيان أحوال تحملنى على اعتقاد أن ما ندعيه من حب المساواة ليس إلا رياء ونفاقاً لأنى أرى من لا تفتر ألسنتهم عن اللهج بهذه الدعوى لا يجرون على مقتضاها فى أعمالهم فالطفل الذى يرى فى المدارس أو البيوت أناساً استؤجروا للخدمة يستنتج من ذلك طبعاً أن الأعمال الشاقة أو الكريهة هى من حظ الطبقة السفلى من قومه ولا يفيده فى محو هذا الاعتقاد من نفسه أن تحدثه فى المستقبل عن ضرورة تقسيم العمل بين الناس أو عن غير ذلك من المسائل النظرية الكثيرة فانه يعلم كمال العلم أن ليس للخدم أن يأكلوا على موائد سادتهم ولما كان يتوهم فى والديه أنهما يعدانه لأن يكون من السادة رأى أنه بذلك مؤنة الاشتغال ببعض الأعمال التى من شأنها أن توسخ يديه أو تقذر وجهه . كان رأيه فى هذه الأعمال لا بد أن ينتقل إلى من يقارفونها من الناس فيحكم عليهم بحكمه عليها وبذلك لا يكون إلا كثير الانسياق إلى احتقار جميع الصناع والرزاية عليهم .

صممت أنا وهيلانه على تكليف «أميل» بعمل كل ما يلزم لفراشه وحجرته وثيابه ولا أكره مطلقاً أن أراه يمسح نعليه ويسوى عند الحاجة طعامه فان الفائدة التى تعود عليه من ذلك ليست قاصرة على كونه يتعلم عدم امتهان من يكسبون قوتهم بمثل هذه الأعمال بل إن فيه أيضاً تنمية لحريته الشخصية بتعويده على الاستغناء عن مساعدة غيره فالأسير المسكين من يعجز عن خدمة نفسه . اهـ

الاحتفال السنوى بمدرسة الجمعية الخيرية وخطبة المفتى

في أصيل يوم الجمعة ٢١ ربيع الأول احتفل في قبة الغورى الاحتفال السنوى المعتاد بمدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية في القاهرة وقد أجاب دعوة رئيس الجمعية الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية الجم الغفير من الفضلاء والوجهاء فحضروا الاحتفال : ابتدأ أحد التلامذة بترتيل آيات من سورة الفتح ثم ارتقى أحد التلامذة الدكة التي يختبر عليها التلامذة فأعطى كتاباً ففتحه وقرأ فيه جملة صالحة قراءة صحيحة فسأله الرئيس بيان معناها فبينه : ثم اختبر آخرون بالاعراب وبالحساب ورسم خريطة أفريقيا وبالتاريخ الطبيعي ككيفية الدورة الدموية وقرأ بعضهم مقالات محفوظة في فوائد الصوم وفوائد التربية وغير ذلك فأحسنوا جميعاً وصفق لهم النادى مرات متعددة . وأنكر الأستاذ الشنقيطى التصفيق على القوم أنه بدعة فتركه بعضهم وأصر عليه الاكثرون لأن بعضهم يراه من العادات المباحة التي اقترن بها تنشيط التلامذة وادخال السرور على قلوبهم وبعضهم لم يصل إليه الانكار . وكان الرئيس كعادته يناقش كل تلميذ فيما يقول ويطلب منه التعبير عما قاله حفظاً بعبارة عرفية . ثم وزع الجوائز وهي على ماذكرنا في السنة الماضية قسمان أحدهما ريع المال الذى جمع لاقامة تذكار لعلى باشا مبارك لخدمته المعارف في مصر والثانية تبرع الأستاذ الشيخ عبد الرحيم الدمرداش فهذا وزع على نفر من الناجحين في المدرسة . وأما الأول فاستقر الرأى على أن يشترى به كل عام كتب نافعة تعطى للتلميذين اللذين يفوقان سائر التلامذة ممن أتموا المدة بشرط أن يشتغلا بعد المدرسة بتعلم صنعة من الصنائع وكذلك كان . وبعد ختم الاحتفال بترتيل أحد التلامذة آيات من الكتاب العزيز وقف رئيس الجمعية فشكر للحاضرين سعيهم في الخير لمشاهدة أولاد الفقراء المتعلمين ثم قال مامعناه ملخصاً :

لابد أن يكون بعض الحاضرين ممن يشتغلون بعلم التربية ينتقد علينا شيئاً انا أوافقهم على انتقاده قبل أن أذكره وأجيب عنه وهو أن يحفظ التلامذة مقالات في الدين والأدب كالذى سمع منهم الآن فيها من الحكم والمعانى العالية مالاترتقى عقولهم إلى الاحاطة به وماتعجز ألسنتهم عن بيانه بغير العبارة المحفوظة . أعيد القول بأن هذا الانتقاد صحيح وأن حشو الاذهان بحفظ مالايفهم يفسدها ويذهب باستعداد العلم منها . ومدارس الجمعية تهتم

بهذا الأمر فنحن نؤكد دائماً على المعلمين أن لا يملوا التلامذة كلاماً لا يفهمونه والعمل على هذا والتفتيش من ورائه لتحقيقه

وأما ما سمعتم فقد جاء من باب الاستثناء لغرض صحيح يوافقنا عليه المتقدمون بادى الرأى . ذلك ان التلميذ يخرج من مدرستنا إلى العمل غالباً ولا ثقة لنا بأنه يسمع فى خطب المساجد ولا فى دروسها شيئاً من حكم الدين وأسراره التى تبعث النفوس على العمل بأحكامه كالذى سمعتم من حكم الصوم . وكذلك لا نرجو أن يجد معهداً من معاهد العلم يسمع فيه شيئاً من مباحث التربية وعلم الاجتماع والآداب العالية فبالأولى قرأينا أن يحفظ كل تلميذ بعض مقالات فى هذه المقاصد يجتهد فى إفهامه معانيها بالجملة كما يقتضيه سنه ويوكل الفهم التفصيلى إلى حوادث الزمان وارتقاء الفكر فيها فهذه المحفوظات القليلة المفيدة ذخر للتلميذ فى مستقبله وهى كبذرة وضعت فى أرض صالحة يتعاهدها الزمان بالسقى والتغذية حتى تثمر الثمرة الصالحة إن شاء الله تعالى

إذا أجلتم النظر فى أحوال المسلمين ترون ان ترك تعليم الدين على هذا الوجه من بيان فوائده وحكمه وغرسها فى النفوس (وهو الفقه الحقيق فى الدين) قد أدى إلى تركه من بعض المسلمين والاتيان به على غير وجهه من بعض آخر . ولنضرب المثل بفريضة الزكاة التى حفظ تلامذتنا مقالة فى فوائدها فى العام الماضى كما يذكر من حضر احتفاله وفريضة الصوم التى سمعتم فوائدها وهى التى تلى الزكاة فى الترتيب

الزكاة ركن من أركان الإسلام وبذل المال فى إقامة هذا الركن يفضل غيره من أنواع البذل ولذلك قرنت الزكاة بالصلاة فى القرآن فى أكثر المواضع وقد جعل الله انفاق المال فى سبيله آية الإيمان ، وجعل تركه علامة النفاق والكفران ، وقاتل الخليفة الأول بموافقة الصحابة كلهم رضى الله عنهم مانعى الزكاة . ومع هذا كله نرى المسلمين قد هدموا هذا الركن ونسوه حتى كأنه ليس من الدين بالمرة . وأطال الأستاذ الكلام فى الزكاة وفى مضرة تركها ثم انتقل إلى الصوم وبين أن بعض المسلمين تركوه وان الذين يصومون لا يؤدون هذه الفريضة على الوجه الذى أراده تعالى بقوله « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » وأوضح هذا بذكر ما عليه الناس . ثم انتقل إلى الكلام فى تعليم مدارس الجمعية فقال

ان مدارس الجمعية وضعت لتعليم أولاد الفقراء ما لا بد منه لكل إنسان وهو أن يحسن القراءة بلغة أمته ويعرف ما يجب عليه من أحكام دينه ويتربى عليه عملا والحساب

والتاريخ وتقويم البلدان وطرفا من مبادئ التاريخ الطبيعى وحفظ الصحة وأدب المعاشرة . ولا بد عندنا من تعلم هذه الأشياء على وجه مفهوم فى أربع سنين وسن التلميذ لا يتجاوز الخمس عشرة سنة . وليس عندنا لغة أجنبية لأننا لا نعد التلامذة للوظائف والشهادات وإنما نعدهم للعمل بالحرف والصنائع وما ذكرنا من التعليم لا يستغنى عنه صانع ولا زارع

قال : كنت أحب أن يكون هذا التعليم عاما فى البلاد ومنبثا فى جميع الطبقات ثم يتسنى بعده لكل طبقة أن تتناول من العلوم والفنون واللغات فى المدارس الثانوية والعالية ما هى مستعدة له . ولكن المانع للمشتغلين بالتعليم والتعلم من التوجه إلى سلوك هذه الطريقة أمران — أحدهما أن رغبة الناس منصرفة إلى جعل التعليم ذريعة لأخذ الشهادة لأنها شرط للاستخدام فى الحكومة والسبب فى رغبة الناس فى خدمة الحكومة هو ان الناس لعدم ثقتهم بأنفسهم وجهلهم بطرق الكسب الواسعة وضعف هممهم عن سلوكها يود كل واحد منهم أن يكون له مورد من الرزق مضمون يعتمد عليه وان كان وشلا آسناً فإذا استخدم بمائة وخمسين قرشاً ولو فى أعلى الصعيد أو السودان ينام آمناً مطمئناً ويلقى هم الدنيا وراء ظهره الا إذا تيسر له السعى فى شفاعة تزيد فى راتبه أو ينتقل بها إلى مكان غير مكانه ولو استعمل مواهبه التى منحه الله إياها وكدح فى طلب الرزق من طرقه الواسعة لاسيما التجارة لجاز أن يكون من أهل الثراء الواسع وتنعم الخصيب ما شاء أصحاب هذه النفوس الخاملة الصغيرة ثم انتقل إلى بيان السبب الآخر فى عدم التوجه إلى التعليم النافع فقال :

أما ثانى السببين فداؤه اقتل ، وعلاجه أعسر ، أتدرون ما هو ؟ هو المعلمين والمربين فاننا نحتاج فى التعليم الابتدائى إلى من يبدئ التلميذ فى السنة الأولى بألف با فلا تنتهى السنة الرابعة إلا وهو يقرأ ويكتب ويعرف ما ذكرناه آنفاً وعرض عليكم نموذجه . والذين يحسنون هذا النوع من التعليم قليلون . وقد عزمنا على تجديد مدرسة للجمعية ولكننا عند المذاكرة فيها كنا نشكو من قلة المعلمين . إننا نحتاج معلماً لاحدى مدارسنا فنعلن ذلك الجرائد فيجيئنا الراغبون بالعشرات فنمتحنهم ونختار من نراه الأمثل وان لم يكن على حسب الرغبة تماماً ثم يتمرن على طريقتنا فى المدرسة مع طول التنبيه والتفتيش ومثل هؤلاء يجدر بنا أن نسميهم معلمى الضرورة

قال : ذكرت هذا لأوجه نفوس العلماء والوجهاء إلى تلافي هذا الخطب ومداواة هذه العلة التي هي أم العلل وذلك بإنشاء مدرسة لتخريج المعلمين ولا بد في هذا من سعي العلماء ومساعدة الأغنياء . ثم شكر للحاضرين سعيهم فانصرفوا شاكرين . أقول كتبت بعد أيام من الاحتفال في إثر انحراف في الصحة فان نقصت من فوائد الخطاب ففي غير الفوائد الأصلية وان زدت فربما كان كلمة في معنى الكلام تزيد في ايضاحه

« باب الأخبار والآراء »

(تتمة سيرة الكواكبي)

وكان أول عمل عمله في إدارة مجلس البلدية هو قطع عرق الرشوة من العمال الذين يباشرون الأعمال والمصالح ويسمون (الجاويشية) ولكنه زاد في رواتبهم لعلمه بأن الذي يضطر أكثر العمال إلى الرشوة هو قلة الراتب . وكان من ظلم الوالي بعد عزل الفقيد من رياسة البلدية ان أرجع راتب الجاويشية كما كان وألزم صاحب الترجمة بدفع ما كان زاده لهم في مدته إلى صندوق البلدية كما ألزمه بدفع ما أنفق على سلاسل الحديد التي منع بها الجمال من طرق المدينة لأن الوالي أمر بإزالتها عقيب عزله ثم عاد فأمر باعادتها بعد زمن قريب ولكنه لم يعد إلى الفقيد الغرامة التي ظلمه بها

ولما عين رئيساً لكتاب المحكمة الشرعية كانت المحكمة في أسوإ الأحوال في الصورة والمعنى فكان ينفق على إصلاحها من جيبه حتى انه استحضر لها السجوف والاستار من بيته ومنع اختلاط النساء بالرجال إذ جعل لكل مكانا ينتظر فيه دوره للتقاضي ورتب الأوقات ونظم الدفاتر . . .

وكان صاحب عزيمة قوية لا يهاب حاكما ولا يخاف ظالما وعزيمته هي التي جنت عليه فقد كان نجح في عمله عند ما عين مديراً ومفتشاً لمصلحة حصر الدخان كما تقدم في السيرة الرسمية حتى وقع النزاع بينه وبين عارف باشا والي حلب يومئذ فبطل العمل عمل الفقيد في ضبط هذه المصلحة ما عجزت عنه إدارتها العمومية والحكومة جميعاً حتى كانت تخسر في ولاية حلب دون سائر بلاد الدولة . وكان المشتغلون بتهريب الدخان البلدي وبيعه في حلب سبعمائة رجل فمنهم لهم رواتب شهرية ومنعهم من التهريب بحكمة عجيبة . وسيأتي مجمل خبره في عدد الوالي عند الكلام على بعض العقوبات التي نفيها في طريقة